الحملة المصرية الاولى

كان عدد أفراد الحملة المصرية (الأولى) ، التي جهزها محمد علي باشا لغزو الجزيرة العربية :

٨٠٠٠ من المشاة .

و ٢٠٠٠ من الفرسان .

وكان معهم عدد كبير من العمال والصناع وغير المحاربين .

ولم يكن المقاتلون كلهم من أبناء مصر العرب ، فقد كان بينهم (١٥٠٠) الباني – ارناؤوطي – وعدد من المغاربة والترك وبعض المرتزقة من بلدان مختلفة .

قــائد الحملة :

اختار محمد علي لقيادة الحملة ابنه الثاني (أحمد طوسون) ، وكان عمره ستة عشر عاماً .

ويقول الجنرال « فيغان » ان محمد علي لم يختر لهذه الحملة ابنه البكر (إبراهيم) مع أن بنيته أقوى وسنه أكبر، لأنه كان يخشى المؤامرات والاغتيالات فاستبقى إبراهيم في مصر ليكون خلفاً له إذا ما حدث له حادث ..

وصية .. أو وصاية الأب :

ويقول الجبرتي ان محمد علي أوصى طوسون ، قبل سفره ، ألا يفعل شيئاً من الأشياء « إلا بمشورته واطلاعه ، ولا ينفذ أمراً من الأمور إلا بعد مراجعته » .

المنجمون :

ويورد الجبرتي هذا النبأ الطريف : (طلب محمد علي من المنجمين أن يختاروا وقتاً صالحاً لالباس ابنه حلة السفر ، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة).

سفر المشاة بحراً :

وفي شعبـــان من سنة ١٢٢٦ هـ . = أيلول ١٨١١ م . ركب المشاة السفن والداوات من ميناء السويس،وكان مع المشاة عشرون مدفعاً والكثير من الذخائر والمؤن والمعدات .

— وكان عدد من هذه الداوات (أي السفن) قد أرسلها الشريف غالب محملة بالبن إلى مصر وبعث إلى محمد علي،لاتفاقه السري معه،أن يحتفظ بها ويستخدمها في شحن المؤن والمعدات — .

سفر طوسون والفرسان براً :

وفي رمضان سافر أحمد طوسون على رأس الفرسان من « بركة الحج » ، وكانت تتبعه قافلة كبيرة من الإبل محملة بالمهمات والمؤن .

وسافر معه أيضاً كبير التجار محمد المحروقي (المشار اليه في رياسة الركب واحتياجاته وأمور العربان) [1] كما صحبه أربعة شيوخ يمثلون المذاهب الأربعة وهم أحمد الطحطاوي الحنفي ومحمـد المهدي الشافعي والشيخ الخانكي المالكي والشيخ المقدسي الحنبلي، وكان هؤلاء الشيوخ ، فيما يقول عنهم « مانجان » يمشون وراء راية النبي ﷺ ويظنون أنهم ذاهبون .. ليعيدوا الضالين إلى الحظيرة ..

جواسيس سعود أخبروه بقرب مجيء العساكر الى الحجاز :

يقول مانجان ان سعود كان له في مصر جواسيس ، وقد أخبروه بأن الجيش المصري يتهيأ للسفر إلى الحجاز ، فأمر سعود بتجهيز الجيوش في نجد وفي سائر

---

(١) يقول الرافعي ان المحروقي هو الذي تولى إدارة مهمات الحملةوكان له في إعدادها وتجهيزها ورسم خطوطها شأن كبير .

البلاد التابعة لسلطانه ، فبلغ عدد الجنود الذين جمعهم خمسة عشر ألفاً ، جعلهم تحت قيادة ابنه عبد الله ، وعثمان المضايفي .

ثم انضم اليهم طامي وغيره ..

الاستيلاء على ينبع :

يكتفي ابن بشر في وصفه لاستيلاء العساكر المصرية على ينبع بالقول ان هذه العساكر ، لما اجتمعت في ينبع « هرب منه رئيسه جابر بن جبارة ، وقصد المسلمين » .

وقد وجدنا في رسائل محمد علي وابنه طوسون ، وحوليات الجبرتي وتاريخ مانجان ما يعيننا على تكوين فكرة مقاربة عن الاسلوب الذي تم به استيلاء المصريين على ينبع .

ينبع البحر – اول « فتح » !..

كلمة « ينبع » تطلق على ميناء ينبع او « ينبع البحر » ، كما تطلق على ينبع البر او « ينبع النخيل » ، وهما بلدتان متجاورتان ولكنهما منفصلتان .

ألقت المراكب ، التي تحمل المقاتلين المشاة من مصر ، مراسيها أمام ميناء ينبع ، وخرج منها عدد من الجنود الى البر يطلبون الماء ، لشدة عطشهم ، فمنعهم المرابطون عند عين الماء منها وطردوهم عنها ، ثم صبّت عليهم حامية القلعة ناراً حامية ، فأثار ذلك غضب العساكر فنزلوا من سفنهم وأحاطوا بالقلعة ورموها بالمدافع ، ثم أحضروا السلالم وصعدوا الى أسوار القلعة وتغلغلوا في داخلها وقتلوا حماتها المدافعين عنها ، ولم ينج منهم إلا عدد يسير هربوا على خيولهم ، وكان بين الهاربين وزير الشريف غالب .

ويقول مانجان ان الشريف غالب كان تعهد لسعود بالدفاع عن ينبع ، ولذلك اكتفى الوهابيون بوضع حامية صغيرة فيها لا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة مقاتل ، ولكن الشريف غالب لم يفِ بعهده .

ويقول الجبرتي ان الشريف غالب كان أرسل الى أصحاب المراكب الراسية في ميناء ينبع أن ينقلوا ما في سفنهم من أموال التجار وغيرهم ويضعوه في القلعة

تحت حراسة وزيره المقيم فيها – وهذا سر وجود الوزير هناك، فهو لحماية أموال التجار لا لحماية القلعة – .. ولما استولى المصريون على القلعة ، وجدوا فيها تلك الودائع والأموال والأقمشة والبن ، وكان حارسها قد هرب ، فنهبوها ، ثم فعلوا ما هو أفظع وأفجع ، ذلك انهم (سبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر وأخذوهن أسيرات) .

ويردف الجبرتي قائلاً ان المبشرين بهذا الفتح .. وصلوا الى مصر فضربت المدافع الكثيرة من القلعة ابتهاجاً وسروراً وأرسلوا شخصاً الى استانبول ليبشر السلطان ، (وكان ذلك أول فتح حصل) .

ينبع البر :

تم الاستيلاء على ينبع البحر قبل وصول طوسون وفرسانه ، فلما وصل طوسون انضم اليه المشاة ، وأصبحوا مع الفرسان جيشاً واحداً تحت قيادته ، وكتب طوسون الى أبيه رسالة يصف فيها ما حدث بعد ذلك ، فقال :

(بعد استيلاء جنودنا على ينبع البحر ، أخذ الوهابيون الذين يقودهم ابن جبارة وابن مضيان يهجمون على مواقعنا ، ويسلبون بعض الحيوانات ، فقاومهم جنودنا واضطروهم الى التقهقر نحو ينبع البر، حيث أنشأوا ما يشبه التحصينات.

وقد جاء الى معسكرنا عدد كبير من البدو عارضين علينا الخدمة، فاشترينا منهم جمالاً كثيرة، ثم سرنا إلى ينبع البر، وبعد أن استراح الجنود قليلاً في موضع يقال له « مبارك » ، اندفعوا نحو ينبع البر في خمسة طوابير ، ومع كل طابور مدفعان اثنان من مدافع الهاون .

وسرعان ما اقتحم جنودنا الشجعان مخيمات العدو ، فلما رأى القائدان الوهابيان سرعة حركتهم وشدة بأسهم لاذا بالفرار ، ودبت الفوضى في صفوف مقاتلتهم ..

وقد قتلنا منهم نحو ألفي رجل ، وقطعنا رؤوس ستمائة من القتلى لارسالها إلى مصر ، ولكنها فسدت ..

واستشهد من رجالنا أو جرح نحو مائتين .

وتمّ الاستيلاء على بلدة ينبع البر بهدوء وسلام ، ولم يقع نهب ولا عدوان على الأهالي ..

وتليت في المساجد الخطب والأدعية باسم السلطان ، خليفة المسلمين) ..

وهكذا يفخر طوسون بالتمثيل بالقتلى ، وهو أمر حرمته الشرائع كلها وتنكره الضمائر وليس من شأن البشر وإنما هو من شأن الضباع والحشرات ..
ومن المؤسف المخزي انه عاد إلى مثل هذا أكثر من مرة ، ثم فعل ذلك خلفاؤه.

ويقول مانجان ان المصريين استولوا ، بعد استقرارهم في ينبع ، على قرية « السويق » ، بلدة ابن جبارة ، ثم على المويلح .

ويقول الجبرتي : (في منتصف ذي الحجة وصلت هجانة ، ومعهم رؤوس القتلى ومكاتبات .. انهم ملكوا قرية ابن جبارة « السويق » ، وفر ابن جبارة هارباً) ..

وما ندري إن كانت هذه الرؤوس المقطوعة التي أرسلها طوسون هي تلك الرؤوس التي أفسدها الحر ، في ينبع ، أم غيرها .. ومن الذي تلذه هذه الهدايا: محمد علي أم حاشيته ؟ أم يراد بها إثبات فعال الجيش الطوسوني بالبرهان الحسي ؟ أم يراد بها إرهاب الناس ؟

الزحف الى المدينة

معركة بدر :

كان طوسون ينوي الزحف من ينبع الى جـدة فمكة .. ولكن الشريف غالب أرسل اليه أحد رجاله فزيّنَ له المسير الى المدينة المنورة أولاً ،وقال له انه متى استولى على المدينة سهل عليه الاستيلاء على جدة ومكة ..

أخذ طوسون بهذه النصيحة ، وفي منتصف شهر ذي القعدة بدأ زحفه الى المدينة ، وكان يعرف ان الطريق طويلة.. وان الوهابيين سيعترضونه وان معارك ستقع .. ولكنه لم يكن يتوقع قط أن تنزل به هزيمة منكرة .

الاستيلاء على بدر :

كانت المرحلة الاولى في طريق طوسون الى المدينـة قرية (بدر) ، حيث

جرت في السنة الثانية للهجرة موقعة بدر المشهورة التي انتصر فيها النبي ﷺ على قريش نصراً مؤزراً .

دخل طوسون (بدر) بدون قتال ، لأن أحداً لم يدافع عنها ، واتخذها معسكراً له .

معركة قرب بدر مع الوهابية :

ويقول محمد علي في رسالة الى السلطان العثماني ان طوسون (رتب دوريات للحراسة ودوريات لاستكشاف مواقع الأعداء . وانه أرسل عدداً من الهجانة — جعل على رأسهم ابن شديد ، وهو زعيم بدوي موالٍ — الى قرية ابن جبارة « السويق » للاستيلاء عليها من ناحية ولسؤال سكانها عن أخبار الوهابيين وتحركاتهم ، فعرف هؤلاء الهجانة من السكان ان الوهابيين وصلوا الى مكان قريب من بدر ، وانهم يستعدون للهجوم على المصريين ، وأبلغوا ذلك طوسون فأرسل فرقة من الفرسان للتثبت من الأمر ، ولكن هؤلاء الفرسان القلائل الذين أرسلوا طليعة للاستكشاف لا للقتال فوجئوا بجموع الوهابيين ، الذين يزيد عددهم على أربعة آلاف ، فاضطروا الى مقاتلتهم ، فإذا الوهابيون يفرّون أمامهم منهزمين ، بعد أن قتلوا منهم مائتي رجل وغنموا نحو مائة بعير وخمساً وعشرين فرساً ، ولم يحاول الفرسان تعقب المنهزمين لكثرتهم ..

وعندما بلغ طوسون هذا النصر الذي أحرزته فئة قليلة من فرسانه على عدد هائل ، سجد لله شكراً) .. وأرسل الى أبيه في مصر رؤوس القتلى الذين سقطوا في ساحة القتال !..

رواية الجبرتي :

نقل الجبرتي في تاريخه ما أُشيع في مصر عن هذه المعركة ، فقال :

(ورد عليهم خبر بأن جماعة من كبار الوهابية حضروا بنحو سبعة آلاف خيّال .. وفيهم عبد الله بن سعود وعثمان المضايفي ، ومعهم مشاة .. وقصدوا أن يدهموا « العرضي » على حين غفلة ، فخرج اليهم شديد ، شيخ الحويطات ،

ومعه طوائف ودلاة وعساكر ، فوافاهم قبل شروق الشمس ، ووقع بينهم القتل ، والوهابية يقولون :

– هاه يا مشركون .

وانجلت الحرب عن هزيمة الوهابية ، وغنموا منهم نحو سبعين هجيناً من الهجن الجياد ، محملة أدوات ، وكانت الحرب بينهم مقدار ساعتين .) .

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ان سعود ، لما بلغه نزول المصريين في ينبع وهرب ابن جبارة ، أمر ابنه عبد الله أن ينزل الخيف ، من وادي الصفراء ، ويستعد لإقبال العساكر المصرية ، ففعل ، (ثم إن العساكر المصرية والتركية زحفت على المسلمين وأقبلت عليهم ، فأرسل اليهم عبد الله طليعة جيش وفرساناً ، واستعد لهم الترك ، وحصل على المسلمين هزيمة ، وقُتل اثنان وثلاثون رجلاً ..)

إن ابن بشر يتحدث هنا عن معارك وادي الصفراء .. ولكننا نستطيع من المقارنة بين هذه الرواية وبين أقوال محمد علي أن نستنتج أن المعركة إنما جرت بين طليعتين لا بين جيشين : طليعة عبد الله وطليعة طوسون ، وأن عدد المقاتلة كان أقل كثيراً مما ذكر الجبرتي .. والله أعلم .

موقعة الصفراء

هزيمة المصريين النكراء وبكاء طوسون :

يقول بركهارت ان طوسون سار من بدر ، بعد أن أبقى حامية فيها ، إلى (الصفراء) ، وهي سوق لبني حرب ، تبعد ثمان ساعات عن بدر ، ومن هناك سار إلى (الجديدة) ، قرية حرب ، فقاومه رجال حرب قليلاً ثم فروا أمامه ، فاستسهل أمرهم فتتبعهم ، فإذا به يجد نفسه أمام سلسلة من الجبال ملأها وغطاها المقاتلة الوهابيون المنتشرون في كل الجهات .. بأعداد مخيفة ..

كان طوسون يستطيع التراجع بشرف إلى مكان حصين واجتناب الاشتباك بهذه القوة التي لا يملك مقاومتها طويلاً ، فضلاً عن التغلب عليها ، ولكن جنوده لم يتركوا له سبيلاً إلى التفكير السليم ، فقد هالهم ما رأوه فانهزموا بسرعة عجيبة

وفروا لا يلوي بعضهم على بعض ، ثم حاول الفرسان حماية المشاة في هزيمتهم ، ولكنهم ما لبثوا ان فروا هم أيضاً ..

ويزعم بركهارت ان أحد المشتركين في تلك المعركة أخبره أنه شاهد طوسون تنفر الدموع من عينيه وهو يرى ما حلّ بجيشه ، وأنه سمعه يصيح بالهاربين :

– أليسَ بينكم من يريد الصمود معي ؟

فلم يستجب لندائه أكثر من عشرين فارساً .. ومن حسن حظه ان الوهابيين اشتغلوا بجمع الغنائم عن تتبعه هو وجنده ..

وهكذا عاد طوسون مسرعاً إلى معسكره في بدر فأحرقه ، وسار من هناك إلى (البريكة) ، حيث ركب سفينة أوصلته إلى ينبع !

ويرى بركهارت ان طوسون ما كان لينجو من القتل لولا شجاعة إبراهيم آغا [1] ، الذي بقي ملازماً له ، ساهراً عليه ، بعد أن هجره كل قواده ورجاله طالبين السلامة لرؤوسهم فحسب ..

رواية البسام :

ويقول الشيخ محمد البسام – في كتابه المخطوط (الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر) المحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني في لندن – إنه كان يحارب في صفوف الجيش الوهابي في الخيف ، بالصفراء ، وإن عدد هذا الجيش أربعون ألفاً ، وأما عدد جيش طوسون فنحو سبعة آلاف وان الوهابيين عملوا ثلاثة أيام في حفر الخنادق وإقامة المتاريس ، حتى (توجهت سبعة آلاف

---

(١) إبراهيم آغا اسم مستعار ، وحقيقة الاسم : طوماس كيث ، وهو بريطاني من مقاطعة اسكتلندا كان يعمل بحاراً على ظهر السفينة الحربية « هايلندرز » ، التي اشتركت في الحملة البريطانية على مصر ، وقد وقع أسيراً ، وكان عمره عشرين سنة ، فاعتنق الإسلام وآثر البقاء في مصر ، وساقه القدر الى طوسون – بعد أن ارتكب ذنباً فشفعت به أم طوسون – فجعله عبداً مملوكاً من مماليكه ثم رأسه عليهم ، وفي أعقاب معركة الصفراء هذه اتخذه طوسون أميناً على المال (خزندار) ..

وسنرى ، فيما بعد ، ان طوسون جعله حاكماً على .. المدينة المنورة .

من العسكر اليهم ، فأخـــذ الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ولم يجد عسكر الوزير طوسون مدخلاً الى عسكر الوهابي ، لأجل أن السهل خندق ، والجبل مترس.. والأرض امتلأت على رحبها بالوهابي وعساكره) ..

وكان مسعود بن مضيان قد أمره عبد الله بالنزول في مكان بعيد عنه ، فلما احتاج عبد الله الى مزيد من الذخائر أرسل الى ابن مضيان أن يقدم اليه (فجاء معه ألف راية ، فلما رآه عسكر طوسون بهذا العدد ، قالوا : هـــذا الوهابي الكبير – يعنون سعود – والذي في أهل نجد هو ولده عبد الله .

فأدبر عسكر طوسون ممشى ثلاث ساعات ..

والذي قتل من عسكر طوسون ثلاثة آلاف .) .

أول المعركة .. غير آخرها :

من يقرأ وصف بركهارت او البسام لمعركة الصفراء يخيل اليه ان عساكر طوسون لم يقاتلوا وانهزموا من أول يوم،والحقيقة انهم حاربوا ثلاثة أيام وحققوا في أول الأمر انتصارات ، ولكنهم غُلبوا على أمرهم بعــد ذلك وهربوا ونزلت بهم خسائر جسيمة وكانت هزيمتهم مخزية جداً .

وصف معركة الصفراء في ابن بشر :

يقول ابن بشر ان الإمام سعود لما سمع بسير العساكر المصرية الى المدينـــة (أمر على نواحي المسلمين من الحاضرة والبادية، من أهل نجد والجنوب والحجاز وتهامة ، فسيَّرهم مع ابنه عبد الله ، فنهض عبد الله بتلك الجنود ، ونزل الخيف، المعروف من وادي الصفراء ، فوق المدينة النبوية ، واستعدوا لإقبـال العساكر المصرية .. واجتمع معه من الجنود نحو ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس .

ولما نزل عبدالله بالخيف أمر على مسعود بن مضيان ومن معه من بوادي حرب وجيش أهل الوشم أن ينزلوا في الوادي الذي في جانب منزلهم الذيهم فيه مخافة أن يأتي معه دفعة من الترك فيفتكوا بالمسلمين ..

ثم إن العساكر المصرية والتركية زحفت على المسلمين وأقبلت عليهم،فأرسل

اليهم عبد الله طليعة جيش وفرساناً ، واستعد لهم الترك ، وحصل على المسلمين هزيمة ، وقُتل اثنان وثلاثون رجلاً .

فنزل عسكر الترك مقابل عسكر المسلمين، فالتقى الفريقان ، وجعل عبدالله على الخيل أخاه فيصل بن سعود وحباب بن قحيصان المطيري ، فحصل قتال شديد ، وصبر الفريقان ، وكثر القتل في الترك والمسلمين ، وصار عدة وقائع ومقاتلات في هذا المنزل ، وابتلي المسلمون بلاءً شديداً ، فكلما حمل الترك على جمع المسلمين انهزم الأعراب وثبت غيرهم ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فأرسل عبد الله إلى مسعود بن مضيان ومن معه من حرب وأهل الوشم وأمرهم أن يحملوا على الترك ، فأقبلوا ، وصار أول حملة عليهم ، مع جملة جنود المسلمين ، فانهزمت العساكر المصرية لا يلوي أحد على أحد ، وانكشفوا عن مخيمهم ومحطتهم ، وولوا مدبرين وتركوا المدافع - وهي سبعة - والخيام والثقل والرحايل وكثير السلاح وما في محلهم من جميع آلات الحرب والذخائر ، وما نجا منهم إلا أهل الخيل ، الذين أدبروا مع باشتهم . ومات غالب خيولهم حفاً وظمأً حتى وصلوا الى « البريكة » وركبوا منها في السفن إلى ينبع واستقروا فيه ، وقتل من رجالتهم عدد كثير وأخذ المسلمون منهم من الأموال والسلاح ما لا يُحصر ..

والذي حرر لنا ان القتلى من الترك أكثر من أربعة آلاف رجل .

وقتل من المسلمين من جميع النواحي نحو ستمائة رجل ، منهم مقرن بن حسن ابن مشارى بن سعود ، ورئيس قحطان هادي بن قرملة ، وسعد بن ابراهيم بن دغيثر .. وغيرهم .

.. وكانت هذه الوقعة في العشر الأواخر من ذي القعدة .) .

وصف الشيخ عبد الرحمن للموقعة :

كان العالم الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب من شهود معركة الصفراء - وهناك من يسميها معركة الجديدة - وقد وصف جانباً منها في مقاماته ، فقال ان المسلمين اجتمعوا في بلد حرب (وحفروا في مضيق الوادي

خندقاً ، وعبأوا الجموع ، فصار في الخندق من المسلمين : أهل نجد ، وصار عثمان المضايفي ومن معه من أهل الحجاز فوق الخندق .

فحين نزلت العساكر (المصرية) ارزت خيولهم وعلموا أن لا طريق لهم الى المسلمين ، فأخذوا يضربون بالقبوس ، فدفع الله شر تلك القبوس الهائلة عن المسلمين ، ان رفعوها مرّت وما ضرّت ، وان خفضوها اندفعت في التراب ..

فهذه عبرة ، وذلك من أعظم ما معهم من الكيد أبطله الله في الحال .

ثم مشوا على عثمان ومن معه في الجبل ، فتركهم حتى قربوا منه فرموهم بما احتسبوهم به وما أعدوه لهم حين أقبلوا عليهم ، فما أخطأ لهم بندق ، فقتلوا العسكر قتلاً ذريعاً .

وهذه أيضاً من العبر ، لأن العسكر الذين جاءهم أكثر منهم بأضعاف ، ومع كل واحد من الفرود والمزندات ، فما أصابوا رجلاً من المسلمين وصار القتل فيهم .. هذا كله وأنا أشاهده ..

ثم مالوا الى الجانب الأيمن من الجبال بجميع عسكرهم من الرجال ، وأما الخيالة فليس لها فيه مجال ، فانهزم كل من كان على الجبل من أهل بيشة وقحطان وسائر العربان ، الا ما كان من حرب فلم يحضروا ، فاشتدّ على المسلمين لما صاروا في أعلى الجبل ، فصاروا يرمون المسلمين من فوقهم ، فحمي الوطيس آخر ذلك اليوم ثم من غد ، فاستنصر أهل الإسلام ربهم الناصر لمن ينصره فلما قرب الزوال من اليوم الثاني ، نظرت .. فإذا برجلين قد أتيا فصعدا طرف ذلك الجبل فما سمعنا لهما بندقا ثارت ، إلا ان الله كسر ذلك البيرق ونحن ننظر ، فتتابعت الهزيمة على جميع العسكر فولوا مدبرين وجنبوا الخيل والمطرح وقصدوا طريقهم الذى جاؤوا معه ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويسلبون) ..

وصف الجبرتي لهزيمة الصفراء :

ويقول الجبرتي ان القادمين من الحجاز أخبروا ان جيش طوسون نزل الصفراء والجديدة فوجد بينه وبين كبر الجيش الوهابي عدة متاريس فأخذ المتراس الأول

ثم الثاني ، ثم صعد قسم من العساكر إلى قمم الجبال فهالهم ما رأوا من جموع الوهابيين فقاتلوهم يوماً وبعض اليوم ثم ولوا الأدبار منهزمين وهبطوا من الجبال على أسوأ حال فانهزم معهم سائر المشاة والخيالة (وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم ، فكان القوي منهم يأخذ متاع الضعيف ويأخذ دابته ، وساروا طالبين الوصول إلى السفائن بساحل البريكة لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب هناك من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا ان القوم في أثرهم والحال أنه لم يتبعهم أحد.. لأنهم – الوهابية – لا يذهبون خلف المدبر،ولو تبعوهم ما بقي شخص واحد).

ويصف الجبرتي بعد ذلك هرب المنهزمين بالسفن إلى ينبع فيقول انهم كانوا (يتزاحمون على النزول فيها..ويمنعون الباقين من اخوانهم.. بالبنادق والرصاص وانهم كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في الفطائر يخوضون في البحر الى رقابهم ، وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم) .

وقد وصل طوسون باشا بعد أن تغيب يوماً عن معسكره « حتى أنهم ظنوا فقده » .

.. ورجع المحروقي فقام عليه كبار العسكر وأسمعوه الكلام القبيح وكادوا يقتلونه ، فنزل في سفينة وخلص منهم .

طوسون يشرح أسباب الهزيمة :

أرسل طوسون إلى أبيه رسالة طويلة يصف له فيها بعض وقائع «الصفراء» ، ويشرح له أسباب هزيمته ، وها نحن نقتطف منها أهم الفقرات في شيء يسير من التصرف :

١ – لم تكن الهزيمة ناشئة عن شجاعة الوهابيين وقوتهم .

٢ – من أسباب الهزيمة : اختيارنا للمعركة ميداناً غير صالح .

٣ - وأعظم أسباب الهزيمة : الارتجال وفقدان التخطيط .. وعدم اتخاذ الاستعدادات الكافية .

٤ – كان قتلانا في المعركة ثلاثمائة قتيل فقط .. وأقسم على ذلك [١] .

٥ – أخبرنا جواسيسنا ان كثيراً من المقـاتلين انهزموا او همُّوا بالهزيمة ، ولكن عبد الله بن سعود ورجاله النجديين هم الذين صمدوا وثبتوا .

٦ – قتل من رجال سعود ٦٧٠ رجلاً .

ومن جماعة عثمان المضايفي ٣٣٥ .

ومن جماعة أبو نقطة وابن شكبان ٢٨٧ .

ومن قحطان اليمانية ٤٠٠ .

وقتل ٢٧ أميراً .

يضاف إلى هؤلاء عـــدد كبير من الجرحى ، بحيث يبلغ مجموع القتلى والجرحى حوالي أربعة آلاف .

٧ – كان الوهابيون معجبين بشجاعة عساكرنا وقوتهم وكانوا يتساءلون : أبشر هؤلاء أم جن ؟ وكان الخوف من عسكرنا ظاهراً على وجوههم .

٨ – إن هزيمتنا في الصفراء درس لنا ، وستعقبها انتصارات ..

غضب محمد علي على المنهزمين :

لما عـــاد رؤساء العساكر – الذين انهزموا في الصفراء – إلى مصر ، رفض محمد علي أن يرى أحداً منهم ، ويقول الجبرتي انهم وصلوا القـاهرة (في أسوأ حال من الجوع وتغير الألوان وكآبة المنظر والسحن ، ودوابهم وجمالهم في غاية العيّ) ، وتساءل : هل كانوا قادرين على النصرة والغلبـة وفرّطوا في ذلك .. حتى غضب عليهم محمد علي ؟

سبب الهزيمة قلة الدين والفسق :

ويرجع الجبرتي سبب الهزيمة إلى قلة الدين ، فيقول ان أحد كبار المصريين العائدين من المعركة قال له :

---

(١) قدر الرافعي عدد قتلى المصريين بستمائة ، ثم مات آخرون من الجوع والعطش والمرض، بعد فرارهم .

(أين لنـا بالنصر ، وأكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً ..

وصحبتنا صناديق المسكرات .

ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر في بالهم شعائر الدين ..

والقوم – أي الوهابيون – إذا دخل الوقت أذّن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع .. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم أذن المؤذنون وصلُّوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفـة للحرب ، وتتأخر الاخرى للصلاة .)

أضاع الوهابيون الفرصة :

هناك مـا يشبه الإجماع من المؤرخين على أن الوهابيين ارتكبوا خطأ كبيراً بعدم تتبعهم عساكر طوسون المنهزمة وإفنائها مرة واحدة .. ثم الحيلولة دون دون وصول قوات مصرية جديدة .

قال الجنرال فيغان : لم يحسن رجال سعود استغلال انتصارهم في الصفراء ، فقد كان عليهم أن يتتبعوا خصومهم إلى ينبع ، ولكنهم ظنوا أنهم هزموا طوسون هزيمة لا قيام له بعدها .. واكتفوا بتقوية حاميتهم في المدينة .. تاركين لأهل الصفراء مهمة الدفاع عن أرضهم .. وعادوا إلى أوطانهم ..

أمـا مانجان فيذهب إلى أن الوهابيين حسبوا انسحاب طوسون مكيدة ، فلم يتعقبوه ..

هل فكر محمد علي في الانسحاب من الحرب ؟

يقول هانوتو ان محمد علي ، بعد الهزيمة التي مُنيت بها جنوده ، لم يعد راغباً في متابعة الحرب ، ففي عام ١٨١٢ طلب من الوكيل البريطاني ميست أن يكتب إلى اللورد مينتو الحاكم العام ويستدرجه إلى إذاعة بيان يعلن فيه عزمه على تدمير القوات المصرية ، وذلك ليتخذ محمـد علي هذا الكلام وسيلة وحجة لاستدعاء

الحملة المصرية من الحجاز وصرف النظر عن الحرب في الجزيرة العربية نظراً إلى الخطر البريطاني المداهم ..

ولكن استيلاء طوسون على المدينة ومكة أعاد إلى محمد علي الثقة والطمأنينة والطمع ، فغيَّر رأيه وقرر المضي في الحرب ، بعد أن لاحت له بشائر النصر ..

النصر بعد الهزيمة :

بعد هزيمة الصفراء ، أقام طوسون ، مع فلول جيشه ، في ينبع ، ينتظر الجيوش والمؤن والأسلحة والذخائر والأموال التي طلبها من والده ، ليتابع الحرب.

وقد أدرك محمد علي أن سمعته وبقاءه في ولاية مصر مرهونان بنجاحه في الحرب فلم يدخر جهداً في تجهيز الجيوش وإرسالها تباعاً إلى الحجاز ، مع كل ما يلزمها ..

وكانت أول فرقة أرسلها محمد علي بقيادة (أحمد آغا) ، الذي أصبح ، فيما بعد ، مستشار طوسون المفضل .

ويقول بركهارت ان أحمد هذا – الذي لقبوه في الحجاز ونجد بـ (بونابرت) تشبيهاً له بامبراطور فرنسا وقائدها العظيم نابوليون بونابرت – اشتهر خلال حوادث المماليك بشدة فتكه وسوء خلقه فلم تكن لحياة الناس عنده قيمة ولم يكن للأخلاق عنده اعتبار .. وربما نطق بعض النجديين اسمه هكذا : « بن نبارت » ، فكأنهم ظنوا أن له أباً اسمه نبارت ..

أما الفرقة الثانية التي أرسلها محمد علي مداداً لابنه فقد عقد لواءها لصالح آغا السلحدار .

ثم أرسل عساكر كثيرة من المغاربة والأتراك ..

هل أخبر سعود الانكليز بالامدادات المصرية :

يزعم فيلبي في كتابه (العربية السعودية) ان سعود ، لما بلغه خبر الامدادات التي طلبها طوسون من مصر ، بعد هزيمته ، أرسل مندوباً إلى بوشهر ، لمفاتحة المقيم البريطاني في الأمر ، ولكن حكومة الهند رفضت التدخل ، لأن البريطانيين كانوا يريدون إضعاف سلطان الوهابيين ..

الشريف غالب يكتب الى طوسون :

استقر طوسون في ينبع البحر ، وأفاد من درس الهزيمة فأصلح أحواله ، وأقام النظام والألفة والتعاون بين ضباطه وجنوده ، وتناقل البدو أخبار الامدادات التي تصل إلى طوسون بكثرة وفيها الجنود والسلاح والطعام والأموال، فكان ذلك اغراء ودعوة لهم إلى محالفته طمعاً بالمال والمغانم.

ولما رأى الشريف غالب تعاظم قوة طوسون كتب اليه واعتذر له عما كان منه .. ووعده بأن يدخل الجيوش المصرية التركية مدينتي مكة وجدة بأمان ، كما وعده بإرسال جماعة من رجاله لمساعدته في قتال الوهابيين .

محمد علي يخبر السلطان بتأخير الزحف لشدة الحر
وانه سيتولى بنفسه ادارة المعارك :

ويقول محمد علي في رسالته إلى السلطان العثماني انه استحسن تأخير الزحف إلى المدينة المنورة حتى أوائل الشتاء لأن الحر لا يطاق، والماء قليل — ويستشهد محمد علي بحديث روي عن النبي ﷺ لم تثبت صحته ، وهو : « من صبر على حر مكة وبرد المدينة فتحت له الجنة » — .

ويقول محمد علي في هذه الرسالة أيضاً انه أوصى (الآغوات) الذين يعملون مع ولده أن يتمسكوا بالطاعة والاخلاص ويستبسلوا في القتال فإن لم يفعلوا أنزل بهم أقسى العقوبات .

.. وانه سأل القواد عن عدد الجنود الذين يرون ضرورة جمعهم وتجهيزهم لتحقيق النصر — لأنه لا يريد أن يقول قائل في المستقبل ان محمد علي ضن بإرسال الجنود فغلبه الوهابيون — فأجابوه انهم يريدون خمسة عشر ألف جندي .. [1]

فجمع محمد علي هذا العدد ، ثم أضاف اليه فرقة كبيرة من الفرسان ..

---

(١) يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٧ : (وفي هذه السنة قدم من مصر أحمد بن نابرت على العسكر الذي في ينبع البحر مع أحمد طوسون ... بعساكر كثيرة جهزها معه محمد علي صاحب مصر ، فضبطوا ينبع البحر وتبعهم بقية عربان جهينة واستولوا على ينبع النخل ..)

وهو قائم الآن بتجهيز ثلاثة آلاف جندي من المغاربة ، فوق الذين أرسلهم من قبل ..

وينهي محمد علي رسالته قائلاً :

سأجمع كل ما أستطيع جمعه من الجنود، وأعمل كل ما أقدر على عمله، مضحياً براحتي ومالي وصحتي وحياتي ، تحقيقاً لرغبات مولاي السلطان .. وسأتولى أنا بنفسي إدارة المعارك .

استخدام المال للنصر :

لم يشأ طوسون أن يجعل جنوده وأسلحته ، على كثرتها ، وسيلته الوحيدة إلى كسب الحرب ، وإنما تذرع بالسياسة والكياسة والكرم الزائد في معاملته لزعماء البلاد ورؤساء العشائر ، وذلك لاستمالتهم إلى صفه والتقوي بهم وإضعاف خصمه بانفضاضهم من حوله، وقد وجّه عناية خاصة إلى عشيرتيْ حرب وجهينة لأنهما تقيمان في المنطقة الممتدة من المدينة إلى الصفراء وما بعدها – أي في طريق زحفه إلى المدينة .

وهذه السياسة أوصاه بها أبوه فاتبعها وساعده في تحقيقها المحروقي وكبار رؤساء العسكر .. فالمحروقي اشترى جماعة من بني حرب والقواد اشتروا أعداداً كبيرة من بدو جهينة ..

ويقول ابن دحلان انهم أعطوا شيخ مشايخ حرب (مائة ألف ريال فرنسية عيناً ، ففرقها على المشايخ وخصّه هو بمفرده « ١٨ » ألف ريال . وأعطوا شيخاً صغيراً من مشايخ حرب ثمانيـة عشر ألف ريال ، ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر، وكان ذلك بتدبير شريف مكة الشريف غالب، وهو – في الظاهر – تحت طاعة الوهابي .)

ويلاحظ الجبرتي ان سعود بن عبد العزيز لم يكن كريماً مع العرب ، ويقول ان المصريين انهزموا في العام الماضي بسبب مقاومة عربان حرب لهم في الصفراء، ولكن هؤلاء البدو المتوهبين أصابهم العسر والعنـاء فتركوا الوهابيين وانقلبوا

عليهم ، لأن الوهابيين – في زعمهم – لا يعطونهم شيئاً ويقولون لهم :
« قاتلوا عن دينكم وبلادكم . » .
.. وقيل لمحمد علي : إذا بذلتم لهم الأموال صاروا معكم وملّكوكم البلاد ، فأرسل من مصر أموالاً كثيرة وهدايا دفعت إلى شيوخ العربان .

ويضيف الجبرتي إلى ذلك جملة تدلّ على كرهه لسياسة الشريف غالب تجاه الوهابيين ، قال : (وكل ذلك بمخابرة الشريف غالب أمير مكة وتدبيره ، وقد فعل ذلك بعد حج ابن سعود وارتحاله ، وسيلقى جزاءه ...)

والحق إن هذه الأموال والهدايا التي بذلت بسخاء نادر لاستمالة العربان قد مهّدت أمام طوسون الطريق إلى المدينة ، لأن هؤلاء العربان هم أهل الدار وحُماة جبالها ووهادها وطرقها ، وطوسون جعلهم يحاربون معه بدلاً من أن يحاربوه ..

استيلاء طوسون على الصفراء :

قام طوسون بعد استمالته العربان المقيمين في جواره ، بتوطيد حكمه في ينبع البحر والبر والمويلح ، ثم أخذ في توسيع منطقة « نفوذه » تدريجياً ، وتطهيرها من الخصوم .. ولما فرغ من ذلك نقل معسكره إلى « بدر » ، وشرع يرسل من هناك الحملات الصغيرة يناوش بها الوهابيين وأنصارهم ، ويبدو أن حملاته كانت موفقة لأنه قتل كثيراً من العربان الموالين للوهابيين أو اضطرهم إلى الفرار والابتعاد ، بحيث أصبح طريقه إلى الصفراء ، التي لقي فيها من قبل هزيمة منكرة ، طريقاً آمناً ممهداً ..

أرسل طوسون طليعة من جنده إلى الصفراء لاستكشاف أحوالها ، فوجدوها خالية ، فسار اليها طوسون ودخلها بسلام ، من غير حرب .

قال الجبرتي ، في أخبار رمضان سنة ١٢٢٧ هـ . :

(وردت هجانة يبشرون باستيلاء الترك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب ، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة ، ولم يجدوا أحداً من الوهابيين) .

أما ابن سند فيزعم أن المصريين بعد أن قويت عزائمهم بالرجال والمدافع

(نهدوا إلى الصفراء مرة ثانية ، وساعدهم على دخول تلك الجبال والمضايق قبائل بني حرب ، وخصوصاً « الأحامدة » .. فخيّم عسكر المصريين في الصفراء وصارت بينهم وبين الوهابيين حرب ثانية انكسر فيها الوهابيون وانهزموا وقد داخلهم الخوف والرعب من صوت المدافع ترن بين الجبال ولها دوي وما كانوا سمعوا بمثلها قط ، فرفعوا عساكرهم من هذه الجهات) .

وكلام ابن سند غير صحيح ، لأن جنود نجد كانت متجمعة في المدينة وحول الطائف، ولم يكن في منطقتي ينبع والصفراء مقاتلة وهابيون ، وربما كانت فيها بقية قليلة من رجال ابن جبارة فاستسلم بعضها وهرب بعضها ولحق بالموحدين .

سرور السلطان .. وتسمية محمد علي قائداً .. الخ ..

سرّ السلطان باستيلاء طوسون على المناطق التي كان عجز عنها وأضاعها ، وأكبر اجتهاد محمد علي في إرسال الجنود والأسلحة والأموال إلى الحجاز..وعزم محمد علي على المسير إلى الحجاز ليتولى إدارة المعـارك بنفسه ، فأصدر « فرماناً » سمّى فيه محمد علي (القائد الأعلى لجيوش الحجاز) وأطلق يديه في كل شيء يرى عمله هناك و (باستقلال تام) .. وتمنى للحملة نجاحاً كاملاً ..

وكان محمد علي قـد طلب من السلطان أن يمده بأعداد من « العمال الفنيين والمعماريين لإقامة القلاع والاستحكامات ، مع معداتهم » ، وبعدد من القذائف الصاروخية وقذائف اخرى مختلفة ذكر له أنواعها، ليستعين بذلك كله في أعماله الحربية في الحجاز ونجد ، فأرسل اليه السلطان ما طلبه ، مشترطاً عليه أن يدفع أجور المهندسين والعمال ..